المحاضرة الخامسة

الوقائع الاقتصادية في ظل النظام الاشتراكي

المحاضرة الخامسة:

الوقائع الاقتصادية في ظل النظام الاشتراكي

يطلق مصطلح الإشتراكية أحيانا على تدخل الدول في الحياة الاقتصادية ،أو مجرد تملك الدول لبعض المشروعات الاقتصادية ، وأحيانا أخرى يطلق على تدخل الدول لتحسين أحوال الطبقات العاملة والفقيرة من خلال سن التشريعات الاجتماعية التي تعمل على تحقيق هذا الهدف .أما المعنى العلمي للاشتراكية فهو ذلك النظام الذي تكون فيه ملكية وسائل الانتاج للدولة التي تقوم بإدارة النشاط الاقتصادي (من انتاج استثمار وتوزيع) بواسطة جهاز التخطيط المركزي.

I- أسس النظام الاشتراكي: يقوم النظام الاشتراكي على مجموعة من الأسس والخصائص، من أهمها:

1- الملكية العامة: تعدّ الملكية العامة إحدى أهم أسس ومبادئ النظام الاشتراكي، وتعني أن جميع أفراد المجتمع هم من يملكون كافة وسائل الإنتاج المادية والمعنوية

2- التخطيط المركزي: الاقتصاد الاشتراكي لا تحرّكه قوى السوق (قوانين العرض والطلب)، كما هو الحال في النظام الرأسمالي وبدلًا من ذلك يُخطط لجميع الأنشطة الاقتصادية من: الإنتاج والتوزيع والتبادل والاستهلاك، الأسعار، من قبل جهاز تخطيط مركزي، وعادة ما تتولى الحكومة هذه المهمة، وهو ما يعني أن الدولة هي رائدة الأعمال الوحيد- لاوجود للحرية الاقتصادية ولا وجود للمنافسة- ؛

3- مبدأ التوزيع القائل: "من كل حسب طاقته ولكل حسب عمله "، أي أن الدخل الوطني يتمتوزيعه على أساس الحاجة الضرورية دون الكمالية للمجتمع كما ان الانسان في سبيل تلبية الحاجات الجماعية يعمل بكل طاقته ولبس هناك حافزغير المصلحة الجماعية. يقول ستالين "نحن لا نمنح العمال اجورا بمقتضى نوع العمل الذي يؤدونه وانما نمنحهم هذه الاجور بمقتضى كمية العمل الذي ينتجونها"

4- المساواة والعدالة الإجتماعية: من أهم مبادئ وأسس الاشتراكية حماية الطبقة العاملة من الاستغلال، وتوفير الحاجات الأساسية للأفراد من غذاء ومأوى وملابس وتعليم وصحة. أي أنه بدلا من أن يكون هدف الانتاج هو تحقيق الربح لأصحاب رؤوس الانتاج ومالكي وسائل الانتاج فإ الهدف هنا هو تلبية حاجات أفراد المجتمع وانهاء الاستغلال وتحقيق الرفاه الاجتماعي؛ويحلُّ محل الرِّبح -كحافز للنَّشاط الاقتصاديِّ لزيادة الإنتاج، وتنمية الموارد الاقتصاديَّة في النِّظام الاشتراكيِّ- الشُّعور الوطنيُّ، والإحساس بالمسئوليَّة، والمشاركة في بناء الاقتصاد ، وإشباع حاجات المجتمع.

II- ظهور الفكر الاشتراكي: يمكن إرجاع بداية الفكر الاشتراكي إلى النصف الأول من القرن التاسع عشر في أوروبا، عندما رفع العديد من المفكرين والكتاب أصواتهم منددين بالرأسمالية وداعين إلى خلق نظام اجتماعي جديد يكون أكثر انسجاما وأقرب الى تحقيق العدالة والكرامة الانسانية. فبعد أن استقر النظام الرأسمالي وثبت أقدامه بعد الثورة الصناعية أصبح انتاج السلع والخدمات يتم على نطاق كبير جدا، غير أن فوائد ذلك لم توزع بالتساوي بل العكس تركزت أدوات الانتاج في أيدي فئة قليلة من الرأسماليين وتحول الملايين إلى عمال فقراء فالأجور منخفضة وساعات العمل طويلة وظروف المعيشة صعبة. إلى جانب ذلك اختفت المنافسة الحرة لتحل محاها احتكار القلة، لهذا ظهر طيار فكري جديد يعارض وينتقد النظام الرأسمالي، ويطالب بتدخل الدولة من أجل الدفاع عن مصالح الطبقة العاملة هو

التيار الاشتراكي. ويقسم بعض المفكرين الفكر الاشتراكي الى قسمين : الاشتراكية المثالية (الخيالية)، والاشتراكية الماركسية (العلمية)

1- الاشتراكية المثالية: سميت بالمثالية لأنه لم يتم تطبيق أفكار روادها على أرض الواقع. هؤلاء الرواد الذين تخيلوا نظام خال من الملكية الفردية يعيش فيه الناس في ظله في كفاية ورفاهية. اضافة الى ذلك انتقدوا ظاهرة التركيز على الفرد باعتباره الوحدة الاقتصادية الرئيسية في ظل الرأسمالية وصاغوا مصطلح اشتراكية من كلمة (Social) أي الاجتماعي لتقابل لفظ فردي(Individual).

2- الاشتراكية الماركسية(العلمية): كان كارل ماركس من أطلق عليها الاشتراكية العلمية ليميزها عن الاشتراكية المثالية وليُبَيّن أنه استند على التحليل العلمي ليظهر أن النظام الرأسمالي سيقضى عليه نتيجة التطور التاريخي وستحل محله الاشتراكية. فحسب كارل ماركس "كل نظام يحمل في ثناياه عوامل فنائه، والتاريخ ينتقل من نظام اجتماعي إلى آخر نتيجة لعوامل التطور. فعدما تتطور علاقات الانتاج (التي هي اجتماعية) تصطدم مع علاقات الانتاج القائمة على الملكية الخاصة، فتتحول هذه الاخيرة إلى أغلال تعيق تطور قوى الإنتاج وهنا تبدأ الثورة الاجتماعية لتحل هذا التناقض بين علاقات الانتاج الاجتماعية وعلاقات الانتاج الفردية. فحسب كارل ماركس الاشتراكية ستقوم على أنقاض الرأسمالية عندما تقوم ثورة اجتماعية يقوم بها تحالف بين الطبقة العاملة والفلاحين والمثقفين الثوريين، أطلق عليها كارل مركس "البروليتاريا" للإطاحة بالرأسمالية وإزالة الملكية الخاصة واستبدالها بالملكية الجماعية لوسائل الانتاج.

وحسب كارل ماركس اقامة نظام اشتراكي لابد أن يمر بمراحل تاريخية هي:

- **المرحلة الانتقالية:** وهي المرحلة الأولى من بناء الاشتراكية ومن وجهة نظر كارل ماركس هي" المرحلة التي تخرج لتوها من المجتمع الرأسمالي... ولذلك تستمر فيها بعض مخلفات هذا المجتمع القديم في جميع المجالات، الاقتصادية، الأخلاقية، الثقافية.." . وفي هذه المرحلة تقوم الدولة بـ:

* تأميم الشركات والمؤسسات الرأسمالية دون تعويض وتحويلها الى ملكية عامة. حيث تقوم بتأميم المصانع والمناجم والسكك الحديدية والنقل البري والجوي والبحري، والمباني ومؤسسات الخدمات العامة، والأراضي وما تحويه من مياه ومعادن، والأراضي الزراعية و الغابات.

* لابد من تنمية الصناعة الآلية الكبيرة وكذا تطوير القطاعات الاقتصادية الأخرى وخاصة الزراعة؛

* هدف السياسة الاقتصادية في هذه المرحلة هو توطيد التحالف بين فئات الشعب وإشباع حاجاته المادية؛

* القضاء على الطبقات المستثمرة؛

* للدولة في هذه المرحلة الدور الحاسم في تنظيم الانتاج وتوزيع الثروات وإدارة الاقتصاد الوطني بأكمله؛

- **مرحلة الشيوعية:** وهي حسب ماركس الطور الأعلى من تطور النظام الاشتراكي تتميز بـ:

* تطور كبير في قوى الانتاج؛

*وفرة الثروات المادية؛

* زوال الطبقات المستثمرة وانتهاء استغلال الانسان لأخيه الانسان؛

* سيادة علاقات التعاون والأخوة بين أفراد المجتمع؛

* اتسام العمال بوعي عال يمكنهم من الادارة الذاتية للمجتمع؛

لقد تبلور هذا الفكر بعد الدعوة الى نظام اقتصادي جديد (نظام شيوعي) على أنقاض النظام الرأسمالي عندما قام كارل ماركس وصديقه فريدريك انجلز بإصدار البيان الشيوعي في لندن عام 1848، وظلت هذه الدعوة حركة سياسية ضمن حركات سياسية متنوعة لتغيير العالم في عدد من الدول الأوروبية الغربية حتى عام 1917

III- نشأة النظام الاشتراكي والمراحل الأساسية التي مرّبها:

1- **قبيل انتهاء الحرب العالمية الأولى** ومع انهزام جيوش القيصر الروسي أمام ألمانيا سنة 1917 استولى الحزب الشيوعي على الحكم في روسيا بعد ثورته البلشفية، ووُضِع لأول مرة موضع التنفيذ نظام اقتصادي اشتراكي استنادا الى أفكار كارل ماركس. وقد كان من أهم نتائج الثورة البلشفية :

* القضاء على الاقطاع، و الاشراف الحكومي على النشاط الزراعي، حيث أصبحت الحكومة تمتلك المزارع وتؤثر على الانتاج كما ونوعا، تمتلك وسائل الانتاج ووسائل النقل وتحتكرها للتوزيع في الداخل والخارج؛

* تأميم المشاريع الصناعية التي كانت في معظمها مؤسسات صغيرة غير متطورة؛

واجهت روسيا في هذه المرحلة صعوبات عديدة منها:

- معارضة ومقاومة بقايا النظام القديم لم تلبث أن تحولت إلى حرب للتدخل الأجنبي من عدد من الدول الرأسمالية الأوروبية؛

- تخلف روسيا في المجال الصناعي. فإنتاجها قبل الحرب العالمية الأولى نحة29.1 مليون طن من انتاج الصناعات الثقيلة مقابل173.3 مليون طن لالمانيا، و292 مليون طن لبريطانيا، و516.8 مليون طن للو.م.أ. كما أن نحو 15 بالمائة فقط من السكان يعيشون على الالصناعة والتجارة والنقل مقابل أكثر من ضعف هذه النسبة في أي دولة من دول الرأسمالية، فروسيا القيصرية كانت دولة زراعية متخلفة بتراثها الإقطاعي والاستبدادي، حيث كان نحة 5 بالمائة فقط من الأراضي مزروعة ومردود الأرض ضعيفا، وبالتالي مستوى المعيشة كان منخفضا.

2- **الفترة بين الحربين العالميتين الأولى والثانية:** لقد شمل الحكم البلشفي كل أراضي الامبراطورية الروسية القيصرية السابقة وخلال عامي 1922-1936 تم ربطها جميعا باتحاد فيدرالي سمي "اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية"؛ وأهم ما ميز هذه المرحلة:

أ- وقوع الأزمة الاقتصادية 1929 مفي الدول الرأسمالية ما جعلها تنشغل بمشاكلها عن محاربة الشيوعية والتدخل في شؤون في روسيا الداخلية، هذه الأخيرة اتجهت في هذه الفترة الى تعزيز وجودها الداخلي ضد أعدائها من النظام القديم، وفرضت نظم المزارع الجماعية* وقضت على طبقة الملاك الزراعيين

ب- كما تم في نفس الوقت –سنة 1929- العمل بنظام التخطيط المركزي ووضع أول خطة خمسية للتصنيع في الاتحاد السوفياتي مما أعطى للنظام الاشتراكي معالمه الأساسية، التي يمكن تحديد أهمها فيما يلي:

- تأميم الملكيات الزراعية، وسياسات الأسعار الحكومية للمنتوجات الزراعية، والتسليم الاجباري للمحاصيل؛
- اعطاء الأولوية للصناعات الثقيلة وصناعة بناء الماكينات لتوفير القاعدة المادية اللازمة لتنويع وتغيير البنيان الانتاج؛
- الغاء الملكية الفردية لأدوات الإنتاج وتشغيل وسائل الانتاج في القطاعات المختلفة للدولة طبقا للخطط التي تضعها اجهزة التخطيط المركزية؛

- السعي للاكتفاء الذاتي في ظل سوق شبه مغلقة بسبب الحصار(المالي والتجاري والتكنولوجي) المفروض على روسيا-الاتحاد السوفياتي - من قبل الدول الرأسمالية. ما انعكس سلبا على جودة المنتجات؛
- الاستخدام الموسع للموارد المتوفرة بالاعتماد على التخطيط المركزي الصارم في عمليات تخصيص هذه الموارد وهو م عُرِف بنموذج النمو الممتد (التوسع الأفقي) أو نموذج النمو الستاليني. وقد ترتب على ذلك الاهتمام بالكم دون الكيف؛
- وجود سلطة ذات بناء هرمي تعتمد على الأوامر من الأعلى إلى الأسفل، واندماج الحزب الحاكم بالدولة واخضاع منظمات المجتمع المدني للسلطة، وهو ما أدى إلى غياب الديمقراطية وتداول السلطة، التضييق على الحريات والمبادرات الفردية؛

ج- ظهور خطر جديد هو الخطر النازي (ألمانيا النازية) وبدأت الحرب العالمية الثانية في 1939، ما دفع الدول الرأسمالية الغربية للتحالف مع الاتحاد السوفياتي الذي استفاد من المعونات الاقتصادية الأمريكية من أسلحة وعتاد وسلع رأسمالية ضرورية للصناعة، فضلا عن بعض أشكال التكنولوجيا المتطورة. و في عام 1940 تم ضم جمهوريات بحر البلطيق الثلاث (ليتوانيا، لاتيفيا، ايستونيا) الى الاتحاد السوفياتي ليصبح عدد الجمهوريات المنظمة للاتحاد خمسة عشرة جمهورية.

3- فترة الربع القرن الذي تلى انتهاء الحرب العالمية الثانية (1945-1970):

أ- عرف المعسكر الاشتراكي فترة بالغة الحيوية فرغم الخسائر البشرية والمادية الفادحة التي لحقت بالاتحاد السوفياتي فقد خرج من هذه الحرب في وضع متميز سمح له بأن يحتل مكانا بين القوى العظمى. حيث استعاد الكثير من قوته الاقتصادية فقد حقق المعسكر الاشتراكي خلال هذه الفترة معدلات مرتفعة للاستثمار والنمو والتوظيف،

ب- في مجال الصحة والتأمين الاجتماعي حقق الاتحاد السوفياتي خطوات مهمة على مستوى التشريع والتطبيق، فلم تأت سنوات الخمسينات الا وقد أصبحت التامينات ومساعادات العجز والمرض واقعا راسخا للحياة الاجتماعية في الاتحاد السوفياتي، كما تحسنت أحوال وظروف معيشة المواطنون بعد الحرب العالمية الثانية-الا انها بقيت دون مستوى الذي وصل اليه المواطنون في الدول الرأسمالية-

ج-كما عرف نجاحات كبيرة وأحيانا مذهلة في ميادين التقدم العلمي والعسكري. لقد حقق الاتحاد السوفيتي نجاحات باهرة في مجال الفضاء وغيره من المجالات الانتاجية والعلمية خلال هذه الفترة، حيث أنشئت أول محطة كهرذرية في العالم (1954)، وأطلق أول قمر صناعي الى الفضاء (1957)، وأطلقت أول مركبة فضائية وعلى متنها انسان (1961) الى جانب امتلاكه القنبلة الذرية عام 1947

د- تمكن من مد سيطرته على وسط وشرق أوروبا ثم الصين بعد نجاح الثورة الشيوعية فيها سنة 1949، ومن ورائها بعض دول آسيا ككوريا الشمالية والفيتنام، وهكذا انقسم العالم إلى معسكرين أحدهما يأخذ بالنظام الرأسمالي، والثاني بالنظام الاشتراكي وبدأت المواجهة الايديولوجية بينهما التي عرفت بالحرب الباردة* حيث سعى خلالها كل معسكر الى السيطرة والنصر النهائي.

4- فترة السبعينيات والثمانينيات: عرف المعسكر الاشتراكي مجموعة من التحديات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية التي تتطلب مواجهة حاسمة لكنه قابلها بالجمود وعدم التغيير فبدأت تحل به مظاهر الوهن الاقتصادي مما عجل بانهيار النظام الاشتراكي واختفاء الاتحاد السوفياتي سنة 1991.

ومن أبرز هذه التحديات:

أ- على الصعيد الاجتماعي: بشرت ثورة 1917 منذ قيامها وما أعقبها بالرفاه الاجتماعي غير أن ما حدث هو عدم تحسن المستوى المعيشي، فرغم أن أغلب دول المعسكر الاشتراكي قد حقق تقدما في الشروط الاجتماعية للسكان في مجالات الغذاء والصحة والضمان الاجتماعي والسكن وتحسنت أحوال العمال بعد الحرب العالمية الثانية إلا أنها بقيت دون المستوى الذي وصل إليه عمال أغلب دول المعسكر الرأسمالي خاصة فيما يتعلق بمستوى الدخل ونوعية الخدمات الصحية وغيرها، وحرية العمل أو الإضراب وتعتبر حالة ألمانيا أفضل مثال للمقارنة، فمن المعروف أن ألمانيا انقسمت بعد الحرب العالمية الثانية إلى قسم شرقي تبنى النظام الإشتراكي، و قسم غربي انتهج النظام الرأسمالي. لقد كان النمو الاقتصادي والاجتماعي في ألمانيا الغربية أسرع وانجازاتها أكبر من ألمانيا الشرقية فمستوى الدخل مثلا في ألمانيا الشرقية لا يتجاوز نصف مستوى الدخل في ألمانيا الغربية، والأوضاع المعيشية للعمال في ألمانيا الغربية أحسن بكثير من ألمانيا الشرقية والدليل على ذلك محاولة هروب الكثير من الألمان الشرقيين ومن مختلف الفئات العاملة إلى ألمانيا الغربية ما دفع حكومة ألمانيا الشرقية إلى بناء حائط برلين للحد من الهروب. بشكل عام يمكن القول أن شعوب الدول الاشتراكية ضاقت ذرعا بظروف معيشتها وتطلعت إلى ظروف معيشة المجتمعات الغربية التي تُعرض لها يوميا على شاشات التلفاز.

ب- على الصعيد الاقتصادي: الاعتماد على نموذج النمو الممتد الذي يقوم على الاستخدام الموسع للموارد الطبيعية كالأرض والمعادن والنفط بالدرجة الأولى بدلا من الاعتماد على زيادة الانتاجية التي تأتي كحصيلة التقدم التكنولوجي والعلمي. وهو ما أثر على نوعية المنتجات والغرق في سباق الكم وإنتاج ماهو ثقيل وليس ما هو مهم و جيد، لتلبية أهداف الخطة المركزية لا تحقيقا لرغبات المستهلك أو المجتمع. وبالتالي عندما وصلت الدول الاشتراكية وعلى رأسها الاتحاد السوفياتي إلى مرحلة تستدعي ضرورة الاعتماد على التقدم التكنولوجي تعثرت لمحدودية قدرتها على التطور السريع في هذا المجال(بمعنى تخلفه في استخدام المنجزات العلمية لأجل احتياجات الاقتصاد الوطني) من جهة، ومن جهة أخرى ضعف الكفاءة في الادارة الاقتصادية (سوء الادارة الاقتصادي) حيث اعتمدت هذه الدول على الأساليب الإدارية والكمية لإدارة الاقتصاد على نحو مركزي (التخطيط المركزي) التي بقدر ماكانت مناسبة في مراحل التصنيع الأولى بقدر ما أصبحت عائقا أمام تقدم الاقتصادب سبب سوء استخدام السلطة وسيطرة الأجهزة السياسية على الموارد الاقتصادية وما ترتب عليه من سيطرة البيروقراطية على الادارة الاقتصادية.

ج- على الصعيد السياسي: يهمل النظام الاشتراكي قضية أساسية في حياة الفرد وهي حريته وأهميتها في تحقيق سعادته. فإلى جانب حرمان الفرد من حريته الاقتصادية (حرية تملك وسائل الانتاج ومباشرة العمل الحر) حُرِمَ أيضا من حريته السياسية. فلا فرصة لإبداء الرأي بحرية تامة في ظل الاشتراكية، وجميع وسائل الاعلام التي يمكن من خلالها ابداء الرأي إذاعة تلفاز، صحف، نشرات، محاضرات، سينما، مسرح،...) مقيدة من قبل الحزب الحاكم وأجهزته المختلفة. وبشكل عام يمكن القول أن من أخطر التحديات التي واجهت نظام الحكم في الدول الاشتراكية وعلى رأسها الاتحاد السوفياتي هي غياب تام للديمقراطية في مختلف نواحي الحياة.

إن هذه التحديات التي ظهرت خلال حقبة السبعينات والثمانينيات كانت بحاجة الى إحداث تغييرات وإصلاحات جذرية في النظام الاشتراكي، إلا أن استمرار الحرب الباردة والانغماس في سباق التسلح كانا لهما دورا كبيرا في تأجيل التغيير. وعندما جاءت حركة الاصلاح والتي عرفت بـ" البيريسترويكا"[1] بزعامة ميخائيل جورباتشوف الذي تولى رئاسة

[1] "البيريسترويكا" *perestroika* والتي تعني (اعادة البناء) وقد وضع جورباتشوف كتابا بهذا العنوان عام 1987 وعرض فيه الافكار التي تقوم عليها "البيريسترويكا" كان اهمها الاصلاح الاقتصادي وتحقيق الكفاءة الاقتصادية عن طريق اعطاء دور للسوق دون التخلي عن النظام الاشتراكي؛ الديمقراطية السياسية من خلال دمج الاشتراكية بالديمقراطية؛

الاتحاد السوفياتي عام 1990 كان الوقت متأخرا فبعد أن وصل الاقتصاد والمجتمع السوفياتي درجة كبيرة من الضعف كانت محاولات الاصلاح غير كافية فكان أن سقط الاتحاد السوفياتي عام 1991 وبدأ عدد من القوميات التي يتألف منها بالانفصال عنه.

ولا يختلف الأمر كثيرا عن باقي دول أوروبا الشرقية التي عانت هي الأخرى من نفس المشاكل والتحديات وبدأت تظهر فيها حالات التذمر من أسلوب التخطيط المركزي والنموذج الستاليني، والرغبة في التحول من النظام الاشتراكي. كان من نتائجه نشوب انتفاضات ومظاهرات تطالب بالحرية والإصلاح، من أبرزها ما حدث في ألمانيا الشرقية عام 1989 وسقوط جدار برلين ووحدة ألمانيا في أكتوبر 1990.